بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ﴾

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة « ألف » « لام » « راء » ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلَّغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن المُلاحَظ أن هذه الحروف التوقيفية المُقطَّعة لم تأتِ وحدها في هذه السورة كآية منفصلة ؛ مثل قوله في أول سورة ق :

﴿ ق ۝١ ﴾ [ق]

وهي آية بمفردها ، وكما جاء في غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتي الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف ، عدد آياتها ٥٢ آية ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين . وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله ، وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٢٩ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۝٣٠ ﴾ [إبراهيم] . [ تفسير القرطبي ٥ / ٣٦٧٥ ] .

﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ①﴾ [إبراهيم]

كلمة « كتاب » إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن ؛ فهو يُسمَّى كتاباً ؛ ويُسمَّى قرآناً ، ويُسمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة «كتاب » تدل على أنه مكتوب ، وكلمة «قرآن » تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما العُمْدة في أسماء القرآن ؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابي[1] الذي يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْروءة عن اثنين من الصحابة ؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله ﷺ ؛ وهو مَقْروء كما تدلُّ كلمة « قرآن » .

وقوله الحق :

﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ①﴾ [إبراهيم]

يدلُّ على أنه جاء من عُلُوٍّ .

ويقول الحق سبحانه في موقع آخر عن القرآن :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ⑧⑨﴾ [النحل]

ويقول في موقع آخر :

---

(١) هو : زيد بن ثابت الأنصاري ، صحابي ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة ١١ ق هـ ، ونشأ بمكة . كان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . ( الأعلام للزركلي ٣/٥٧ ) .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به ؛ ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذي أرسله الحق بالقرآن إلى محمد ﷺ ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ.. (١) ﴾ [إبراهيم] للتعدي من منطقة اللوح المحفوظ ليباشر مهمته في الوجود ، وعِلّية إنزال القرآن إليك يا محمد هي :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١) ﴾ [إبراهيم]

ونلحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافّة ، ولم يَقُلِ الحقُّ سبحانه ما قاله للرسل السابقين على رسول الله ؛ حيث كانت رسالة أيٍّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيّنين ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وكذلك قوله سبحانه لموسى :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا كان كُلُّ رسول إنما يبعثه الله إلى بُقْعة خاصة ، وإلى أناسٍ بعينهم ، وفي زمن خاصٍّ ، إلا محمداً ﷺ ؛ فقد بعثه الله إلى الناسِ كافَّة .

والمثل أمامنا حين حكم ﷺ بالحق بين مسلم ويهودي ؛ وأنصف اليهودي ؛ لأن الحق كان معه[1] ؛ والحق عند رسول الله ﷺ أعزُّ عليه ممَّنْ ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ①﴾ [إبراهيم]

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله :

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. ①٥٨﴾ [الأعراف]

وبذلك تبطل حُجّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله ﷺ .

الاصْطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً ؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة ؛ فهذه منزلة عالية .

والاصْطفاء الثاني : أنه رسولٌ للناس كَافَّة ؛ وهذه منزلة عالية

---

(١) أخرج ابن عساكر ( ٧/ ٣٥٤ تهذيب تاريخ دمشق ) عن عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي أنه كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه . فقال : يا محمد إن على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذي نفسي بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن تغنمنا شيئاً فأرجع فأقضيه . قال : أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجع ، فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة ، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتر مني هذه البردة . فباعها منه بأربعة دراهم . فمرَّت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ ؟ فأخبرها . فقالت : هادونك هذا البُرْد - لبرد عليها طرحته عليه . وكذا أخرجه أحمد في مسنده ( ٣/ ٤٢٣ ) وأورده الكاندهلوي في حياة الصحابة ( ٢/ ٨١ ) .

أخرى ؛ لأنها تستوعب المكان والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتي الإعجاز في قوله :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ① ﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أنْ يأتي بالظلمات كجمْع ؛ وأنْ يأتي بالنور كمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأهواء ؛ ظُلْمة هنا وظُلْمة هناك .

وحين يُخرجنا الحقُّ سبحانه من الظلمات المتعددة حَسْب أهواء البشر ؛ فهذا فَضْلٌ منه ونعمة ؛ لأننا نخرج إلى النور الواحد .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلي المعاني بالمُحسَّات التي يدركها الجميع ، فلا شك أن الظُّلْمة تستر الأشياء التي قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إنِ اصطدم بشيء فقد يُحطِّم الشيء أو يُحطِّمه هذا الشيء ؛ وهكذا تمنع الظُّلْمة الإنسانَ من أن يهتدي إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميِّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ؛ ويكون على بصيرة من الهداية ؛ ذلك هو الأمر الحسيّ ؛ وكُلٌّ من النور والظلمة أمرٌ حسي .

وهكذا يُجلِّي الله لنا المعاني ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلي المظاهر المادية بالنور ؛ بل تحتاج أيضاً إلى نور يُجلي المظاهر المعنوية ؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ؛ لذلك لا بُدَّ أن تُجلّى المعاني أيضاً . والنور الذي جاء به رسول الله ﷺ يُجلي الحسّ والمعنى في آنٍ واحد ؛ لنتجنب الأشياء التي تطمسها الظُّلْمة ؛ ولنسير على بينة من المعاني ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسِّر لنا الحق سبحانه الأمر المعنوي ، فيقول :

﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ ﴾ [إبراهيم]

وهذا هو الصراط المستقيم الذي يُخرجنا إليه محمد ﷺ من الظلمات إلى نوره .

ويريد الحق سبحانه أنْ يُجلي لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعباً للبعض ؛ فيريد سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين ؛ طريق متضح واضح يصل فيه الإنسان إلى الغاية بيُسْر ؛ وطريق آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى ؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة للغاية المَرْجُوّة من الحياة الدنيا والآخرة ؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .

وينسب الحق سبحانه الطريق الذي يُخرجنا إليه الرسول ﷺ :

﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ ﴾ [إبراهيم]

والعزيز هو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإنْ لم يصدر حَمْدٌ من الغير ؛ فهو حميد في ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدتَه أو لم تحمده فهو حميد .

ولله المَثلُ الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن كل مثيل أو شبيه ؛ نجد في حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد الخصال ؛ وإنْ لم يوجد مَنْ يمدحه ؛ لكنه في كُلّ ما يصدر عنه يراعي أن يكون محموداً .

ولكن البشر يكون المحمود منهم حَدَثاً ؛ أما المحمود من الحق فهو مُطْلق . ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإنعام الذي يجب على الإنسان أن يحمده .

والفطرة السليمة في الإنسان تستقبل هذا الكون المُعَدّ من قَبْل أنْ يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حَمْد الإنسان أو عدم حَمْده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أعدَّ هذا الكون وخلقه ؛ فهو محمود في ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك ؛ وفي هذا هداية إلى صراط العزيز الذي لا يُغْلَب . والحميد الذي يستحق الحمد ؛ وإنْ لم يوجد حامد له ؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق ؛ وهو الرازق قبل أن يُخْلق المرزوق ، وهو مُعِز قبل أن يوجد مَنْ يُعِزه ؛ محمود قبل أنْ يوجد مَنْ يحمده ؛ توَّاب قبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

فهو سبحانه بالصفة يفعل ؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً كريم ؛ إلا لأنك تراه يعطي عن جُود وسَخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ[1] لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ﴾

وأنت إنْ قرأتَ هذه الآية موصولةً بما قبلها ؛ فستقرؤها :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ۝٢ ﴾ [إبراهيم]

وإن كنتَ ستقرؤها مفْصُولة عمَّا قبلها ؛ فستقول :

﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ﴾ [إبراهيم]

وستنطق كلمة « الله » غير مُرقّقة عكسَ إنْ قرأتَها موصولة ، حيث يجب أن تنطقها مُرقّقة .

وتقتضى الأصول فى الكتاب أن يوجد الاسم العلَم على الذات أولاً ، ثم تأتى الصفة من بعده ، فتقول : « لقيت فلاناً الشاعر أو الكاتب أو العالم » ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النَّسَق :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ ﴾ [إبراهيم]

أى : قدَّم « العزيز الحميد » ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلَم على واجب الوجود « الله » ، وقد حدث ذلك لأن العلَم يدل على مُسمَّاه بصرف النظر عن الصفات ؛ ثم توجد الصفات له .

وهناك من العلماء مَنْ قال : إنه مُشْتق بمعنى أن « الله » تعنى

(١) الويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر وإنذار به . [ القاموس القويم : ٢/٣٦٢ ] والويل : الهلاك يُدعَى به لمن وقع فى عذاب أو هلكة يستحقها . [ لسان العرب ـ مادة : ويل ] .

المعبود بحقٌ ؛ وصفة العزيز الحميد حيثية لأنْ يُعبدَ سبحانه بحقٍّ.

ومن العلماء من قال : إن كلمة « الله » هي علَم ، وليست اسماً مُشتقاً ؛ فلَهُ الملكية المطلقة :

﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ②﴾ [إبراهيم]

لا يقع في هذا المُلْك إلا ما شاء هو ، فَمنْ آمن به أنصف نفسه وحياته وآخرته ، أما مَنْ لم يؤمن به فَلَه المقابل ، وهو قوله الحق :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ②﴾ [إبراهيم]

وهذا الويْل ليس في الآخرة فقط ، بل في الدنيا أيضاً ؛ لأن الإنسان حين تعترضه الصِّعَاب والعقبات والمصائب التي ليس له أسباب يدفعها بها ؛ هنا يستطيع المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب ؛ ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له ، وهكذا يشعر أن له رصيداً في الدنيا يعتمد عليه في مواجهة الأحداث الجِسَام .

أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس ؛ ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين ؛ لأن هناك أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان بربٍّ يرجعون إليه .

ولذلك حين أقرأ للمفسرين مَنْ يشرح كلمة « الويل » بأنها عذابُ الآخرة ؛ فأجد نفسي قائلاً : بل والويْل يكون في الدنيا أيضاً ؛ لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان ؛ فلو لم يؤمن الإنسان بالله لَفزِع من فَرْط اليأس .

ولذلك نجد بعضهم حين لا يجدون مَفَرّاً إلا أنْ يقولوا يارب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة الأولى التي قاوموها بالإلحاد وعدم الإيمان ؛ وهذا الويل له امتداد بلون أشد في الآخرة.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الذين لا يؤمنون ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ (١) أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ ﴾

وهنا نجد مادة الحاء والباء : حب ؛ ومن عجائبها أن الفعل يكون رباعياً ؛ فنقول « أحبَّ فلان » ونقول لمَنْ يحبه « محبوب » وهذا يعني أن هناك تلاقياً بين الاثنين ؛ أما في حالة عدم التلاقي فيقال « حَبَّ يُحِب فهو حَابٌ ومُحِبٌ » .

والفرق بين أحبَّ واستحبَّ ؛ ملحوظ في مَجِيء السين والتاء ، وهما علامة على الطلب . وعلى هذا فاستحبَّ تعني أنَّ مَنْ يحب لم يكتفِ بالأمر الطبيعي ، بل تكلَّف الحب وأوغلَ فيه .

والمثل على ذلك نجده في الحياة اليومية ؛ فنرى مَنْ ينجرف إلى شيء من الانحراف ؛ ولكنه لا يُحب أن يكونَ مُحباً لهذا الانحراف في نفس الوقت ؛ ويفعل الانحراف وهو كارهٌ له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنجرف إلى هذا الانحراف .

ونجد آخر ينحرف : لأنه يحب هذا الانحراف وينغمس فيه ؛ وهو مُحِبٌ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف ؛ ويُحب في نفسه أنه

---

(١) قال القرطبي في تفسيره ( ٥/٣٦٧٧ ) : « أي : يطلبون لها زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم » .

أحب تلك المعصية ؛ لأنها تُحقِّق له شهوة عاجلة ؛ هذا هو مَن « استحبَّ » لأنه أزاد الحب عن حدِّه الطبيعي .

وحين تُدقِّق في الآية الكريمة تجد أنها لا تمنعك من حُبِّ الدنيا ؛ لكنها تتحدث لِنْ تستحبّها على الآخرة ، فهذا هو الأمر المذموم ؛ أما إذا أحببتَ الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلْتَها مزرعة للآخرة ؛ فهذا أمر مطلوب ؛ لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد في آخرتك ؛ فهنا طَلَب للدنيا من أجل الآخرة .

ولذلك تجد قوله الحق في سورة « المؤمنون » :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون]

فهو لا يؤدي الزكاة فقط ؛ بل يعمل ليأتيَ لنفسه ولعياله بالقُوت ؛ ويبذل الجهد ليكون لديه فائضٌ يؤدي منه الزكاة ؛ ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أنْ يُعطيه لِمَنْ لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه :

« والذين هم للزكاة مؤدون » بل قال :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون]

وهنا لا تجد هؤلاء الذين يستحبّون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ؛ بل هم يستحبّون الحياة :

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ③ ﴾ [إبراهيم]

أي : أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط ، ولم يكتفُوا بالسَّيْر في طريق الشهوات والملذَّات وتخريب ذواتهم ، بل تمادَوْا في الغي[1] وصَدُّوا غيرهم عن سبيل الله .

ونجد الحق سبحانه يقول في موقع آخر :

﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا .. ﴿٩٩﴾ ﴾ [آل عمران]

كأنهم ضلُّوا في ذواتهم ؛ ولم يكتفوا بذلك ، بل يحاولون إضلال غيرهم ويصدونهم عن الهداية .

ثم تأتي مرحلة جديدة :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. ﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

أي : يبغون شريعة الله مُعْوجة لتحقق لهم نزواتهم . وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال ، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ؛ والصَّد عن سبيل الله ؛ وتشويه المنهج كي يُكرِّهوا الناس فيه .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء :

﴿ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

أي : أن أصحاب المرتبة الأولى في الضلال هم مَن استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين توغَّلوا في الضلال أكثر فهم الذين يصدون عن سبيل الله ؛ أما الذين توغُّلوا أكثر فأكثر فَهُم الذين يُشوِّهون في منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة في الضلال.

(١) الغي : الضلال والخيبة والفساد . [ لسان العرب ـ مادة : غوى ] . وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك في الجهل . [ القاموس القويم ٢/ ٦٤ ] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

ونعلم أن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه ؛ ومُؤيَّد بمعجزة تثبت صدقه فيما بلغ لمَنْ أرسل إليهم. وقد حدَّث الحق سبحانه من قبل عمَّا حدث للأمم السابقة على أمة محمد ﷺ ؛ فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه .

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله ﷺ ؛ وقوم الاستقبال ؛ وهم الأمم السابقة على أمة محمد ﷺ .

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالبةً بأن تُبلِّغ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد ﷺ فمُطالبة بذلك ، لأن الحق سبحانه أرسل رسوله ﷺ ، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على ألسنة مختلفة[1] .

ولم يَكُنْ من المعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل ﷺ في أمة العرب ؛ وحين استقبلوه وأُشربتْ[2] قلوبهم حُبَّ الإيمان ؛ صار عليهم أن ينساحوا بالدعوة ؛ لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] .

(٢) أشرب قلبه محبة هذا ، أي : حلَّ محلَّ الشراب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة] . أي : حب العجل . وقد أشرب في قلبه حبه أي : خالطه . [ لسان العرب ـ مادة : شرب ] .

والقرآن حُجَّة لأنه يسوسُ حركة الحياة ؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف في الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتِها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذي تنطق به .

وترجمة المعاني من لسان إلى آخر مسألة معروفة في كُلِّ حضارات العالم ؛ لأن المسألة في جوهرها مسألة معانٍ ؛ والمعاني لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر ؛ ونزل بالعربية ؛ لأن موهبة الأمة العربية هي النبوغ في اللغة والكلام ؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية ؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات .

ولذلك تستطيع أن تَعقِد مقارنة بين البلاد التي فُتِحت بالسيف والقتال ؛ والبلاد التي فُتِحت بالسِّلْم ورؤية القدوة المسلمة الصالحة ؛ ستجد أن الذين نشروا الإسلام في كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نقلوا الدين بالخِصَال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين في تعاملهم مع غيرهم ، ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعاني ، بجانب كونه معجزةً في اللغة التي نزل بها ، وهي لغة العرب .

ونحن نجد أقواماً لا تستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا في المصحف ، ذلك أنهم تعلَّموا القراءة في المصحف ، واعتمدوا على

فَهْم المعاني الموجودة فيه عَبْر الترجمات التي قام بها مُسلمون أحبُّوا القرآن ، ونقلُوه إلى اللغات الأخرى .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسَّر أمَّ القرآن بلسان العرب أولاً ، ثم يسَّره بأن جعل من تلك الأمة التي نزل عليها القرآن أمة نَشْر البلاغ عنه سبحانه ، ذلك أن الرسالات تُريد تبليغاً : والتبليغ وسيلتُه الأولى هي الكلام ؛ ووسيلته الثانية الاستقبالية هي الأذن ، فلابُدَّ من الكلام أولاً ، ثم لابُدَّ من أذن تعرف مدلولات الألفاظ لتسمعَ هذا الكلام ، ولتُطبِّقه سلوكاً .

كما أننا نعلم أن مَنْ يسمع المتكلم لا بُدَّ وأن يكون واعياً وعارفاً بمعاني الألفاظ ؛ فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

وعرفْنا أن اللغة بِنْت السماع ، وكُلُّ فرد إنما يتكلم باللغة التي سمعها في بيئته ؛ وإذا تتبعتَ سلسلة تعلُّم كل الكلام ستجد نفسك أمام الجِذْر الأصلي الذي تعلَّم منه البشر الكلام ؛ وهو آدم عليه السلام .

وقد قال سبحانه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] .. (٣١) ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] . هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس . إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [ ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/١٢١ ] .

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علَّمها الله لآدم ، ثم تكلَّمها آدم فسمعتْها بيئته ؛ فصارتْ وضعية من بعد ذلك ، واختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. ④ ﴾ [إبراهيم]

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ④ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا أوضح جلَّ وعلاَ السبب في إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ١٩٩ ﴾ [الشعراء]

وقال أيضاً :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ٤٤ ﴾ [فصلت]

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كدليل هداية ويُنقِّي نفسه من الكفر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عمى وعلى سمعه غشاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر .

---

(١) الوقر : ثقل في السمع أو صمم . [ القاموس القويم : ٢/٣٥ ] .

والسبب - كما تعلم - أن حدوث الحادث من آمرٍ به يحتاج إلى فاعل وإلى قابل للفعل .

وسبق أن ضربتُ مثلاً بمَنْ يشرب الشاي ؛ فينفخ فيه ليُبرده قليلاً ؛ ونفس هذا الإنسان حين يخرج في صباح شتوى فهو ينفخ في يديه ليُدفئهما ، وهكذا ينفخ مرة ليبرد شيئاً ؛ وينفخ أخرى مُستدعياً الدفء .

والمسألة ليستْ في أمر النفخ ؛ ولكن في استقبال الشاي للهواء الخارج من فَمك ، الشاي أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد بالنفخ ، بينما اليد في الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم ؛ فتستقبل النفخ لها برفع درجة حرارتها لتتساوى مع حرارة الجسم .

وهكذا تجد أن القرآن واحدٌ ؛ لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ، والكافر يسمعه فيتعب ويرهق منه .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد]

وهكذا تجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا ينصاع إلى معانيه ؛ وتجد مَن يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لِمَا يُوصِي به الحق سبحانه .

إذن : عرفنا الآن أن اللغةَ بدأتْ توقيفية وانتهتْ اصطلاحية ؛ فقد أخذنا من الله ما علَّمه لآدم من أسماء ؛ وتغيَّرت الألسن من جماعة

إلى أخرى ، وهكذا اختلفتْ ألسنة الرُّسُل حَسْبَ القوم المرسلين إليهم .

وكل رسول يُبيِّن للقوم منهجَ الله ؛ فإذا بيَّن هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واستقبله البعضُ الآخر بالكُفْر والضَّلال .

فالذى هداه الله استشرف قلبُه إلى هذا المنهج ؛ وأخرج من قلبه أيَّ عقيدة أخرى ، وبحثَ فيما جاء به الرسول ، وملأ قلبه بالمنهج الذى ارتاح له فهماً وطمأنينة .

وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مخالفة ، ويُصرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمحيص والدراسة والاستشراف .

وكان عليه أنْ يُخرِج القضية المُضلة من قلبه ، وأن يبحث ويقارن ويستشف ويُحسِن التدبر ؛ ثم يُدخِل إلى قلبه القضية الأكثر قبولاً ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحد « ما دام قد أضلنا الله فلم يعذبنا ؟» ولكن ليعلم كل إنسان أن المشيئة لقابلية الإيمان موجودة ، ولكنه لم يَسْتدعها إلى قلبه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

ويقول :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

أى : أن الفسق قد صدر منهم ، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة ؛ فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلاً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾

[إبراهيم]

فمَنْ يُقبل على الضلال يزيده الله ضلالاً ؛ فلن يزيد إيمانُه مُلْكَ الله شيئاً ، ومَنْ يؤمن فهو يضمن لنفسه سلامة الحياة وما بعد الموت ؛ وهو فى الحياة عنصر خَيِّر ؛ وهو من بعد الموت يجد الحياة مع نِعَم المُنعِم سبحانه العزيز الذى لا يُغلَب ؛ والحكيم الذى قدَّر لكلٍّ أمر ما يشاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

والآيات التى أرسلها الله مع - موسى عليه السلام - والمعجزات التى حدثت معه وبيَّنها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا ﷺ نزل ومعه معجزة واحدة وهى القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التى حدثتْ مع رسول الله : فهى قد جاءت لتثبيت فؤاد المؤمنين برسالته ،

ولم يبقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التي يأتنس بها الصالحون من عباد الله .

وكثرة المعجزات التي جاءت مع موسى ـ عليه السلام ـ تبين أن القوم الذين أُرسل لهم قوم لَجج[1] وجدل ، وحين عَدَّد العلماء المعجزات التي جاءت مع موسى وجدها بعضٌ من العلماء تسع آيات ؛ ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة ؛ ووجدها بعضٌ ثالث أربع عشرة .

وفي التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نُفرِّق بين الآيات التي صدرتْ بالنسبة لفرعون ؛ والآيات التي جاءتْ لبني إسرائيل . فالعصا التي انقلبت حيَّة تسعى ، واليد التي تُضيء هي لفرعون ، وعدَّد القرآن الآيات التي جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ[2] .. ⑫ ﴾ [النمل]

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن ؛ فهو لم يُرْسل لهدايته ؛ ولكنه جاء ليُفحمه وليأخذ بني إسرائيل المُرْسَلُ إليهم ، والآيات هي : العصا ووَضْع اليد في الجيب لتخرج بيضاء ، ونَقْص الأنفس والثمرات ؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، هذه هي الآيات التسع الخاصة بفرعون .

أما بقية الآيات التي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل فهي كثيرة مثل :

---

(١) اللَّجة واللجلجة : اختلاط الأصوات . واللجة : الجلبة . والْتجَّ القوم إذا صاحوا . [ لسان العرب ـ مادة : لجج ] .

(٢) المقصود بالقوم هنا هم قوم فرعون .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا(1) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف]

وأيضاً :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ(2) وَالسَّلْوَىٰ(3) .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

ولذلك أجمل الحق سبحانه الآيات التي جاءت مع موسى لقومه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ(4) اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

أي : أعِدْ إلى بُؤْرة شعورهم ما كان في الحاشية ؛ وأنْ يستدعوا من الذاكرة أيام الله ، والمراد ما حدث في تلك الأيام ، مثلما نقول نحن « يوم بدر » أو « يوم ذي قار » أو « السادس من أكتوبر » أو « العاشر من رمضان » .

(1) نتقه : رفعه من مكانه وحرَّكه وجذبه . [ القاموس القويم : ٢/ ٢٥٢ ] .

(2) المن : ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاء طيباً لبني إسرائيل فيحمدوا فضل الله عليهم في ذلك . [ القاموس القويم ٢/ ٢٤٠ ] .

(3) السلوى : السماني ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلئ وهو من الطيور المهاجرة من أوربا في الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر والسودان ويعود ما سلم منه في أوائل الصيف إلى مواطنه في أوروبا . [ القاموس القويم ١/ ٣٢٦ ] .

(4) أيام الله : نعم الله . وأيام الله : وقائع الله في الأمم السابقة . وقال الطبري : وعظهم بما سلف في الأيام الماضية لهم ، أي : بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة ، وقد كانوا عبيداً مستذلين ، واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . [ تفسير القرطبي ٥/ ٣٦٧٨ ] .

وهنا في القول الكريم إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التي حدثت للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم ؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المُرْسل إليه من الله .

أو أن يكون التذكير بالأيام التي أنعم الله فيها على بني إسرائيل بنعمه ، أو ابتلاهم فيها بما يُؤلمهم ؛ ذلك أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ ﴾

[إبراهيم]

والصبَّار هو مَنْ يُكثر الصبر على الأحداث ؛ وهي كلمة تُوحي بأن هناك أحداثاً مؤلمة وقعتْ ، وتحتاج إلى الصبر عليها ، كما تُوحي كلمة « شكور » بحوادث منعمة تستحق الشكر .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين ؛ صبْر على ما يُؤلم ، وشُكْر على ما يُرضي ، وحين تجتمع هاتان الصفتان في مؤمن ؛ يكون مُكتملَ الإيمان[1] .

وقد قال الحق سبحانه : إن تلك الآيات هي أدلة تُوضِّح الطريق أمام المؤمن ، وتُعطي له العِبْرة ، لأنه حين يعلم تاريخ الأقوام السابقة ؛ ويجد أن مَنْ آمن منهم قد عانى من بعض الأحداث المؤلمة ؛ لكنه نال رضا الله ونعمه ؛ ومَنْ كفر منهم قد تمتع قليلاً ، ثم تلقَّى نقمة الله وغضبه .

---

(١) عن صهيب الرومي قال قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم في صحيحه ( ٢٩٩٩ ) .